استفتاء كردستان وتحديات إعلان الدولة

(الدبلوماسى، العدد 259-260، سبتمبر/ أكتوبر 2017)

د. نورهان الشيخ

أثار قرار رئاسة إقليم كردستان مطلع يونيو تنظيم استفتاء حول الاستقلال في 25 سبتمبر، المخاوف من أن يضيف الأمر مزيداً من التعقيدات لمنطقة الشرق الأوسط التى تعتصرها الصراعات والاضطرابات. فالقضية الكردية ليست شأنا عراقياً فحسب ولكنها تمسن وحدة وسلامة تركيا وإيران وسوريا حيث تحتضن الدول الأربع الغالبية العظمى من الأكراد رغم اختلاف وضعهم فيها، فهم أرهابيين فى تركيا، وشركاء فى الحكم فى العراق، وأقلية متمتعة بحقوقها إلى حد ما فى سوريا وإيران.

ومن الواضح أن هناك إرادة سياسية لدى حكومة أربيل لتنظيم الاستفتاء الذى من المتوقع أن تأتى نتائجه لصالح الاستقلال، خاصة بعد الدور القوى الذى لعبته القوات الكردية فى هزيمة داعش فى العراق وسوريا وتطلعها لحصاد كفاحها. إلا إنه لن يؤدى إلى الاستقلال الفورى كما حدث فى حالة كوسوفو، وسيكون على الأرجح مجرد خطوة أولية لتحسين الوضع التفاوضى للأكراد مع بغداد، لاستمرار تمتعهم بامتيازاتهم فى إطار النظام العراقى القائم، أو لأخذ الشرعية للمطالبة بالاستقلال فى وقت لاحق. وتتوقف الخطوات التالية على البيئة الدولية والإقليمية التى تبدو مقاومة للاستقلال الكامل للأقليم. وهو ما أكده هوشيار زيباري، الحليف القوي لرئيس حكومة إقليم كردستان العراق مسعود برزاني، يوم 9 يونيو حين أشار إلى أن التصويت المتوقع بنعم في الاستفتاء على استقلال الأكراد سيعزز موقف إقليم كردستان العراق في المفاوضات مع بغداد لكنه "لن يؤدي إلى الانفصال عن العراق بشكل تلقائي .. نحن لا نتحدث عن الاستقلال.. نحن نتحدث عن استفتاء".

يدعم هذا الطرح مجموعة من العوامل، أولها عدم التوافق الكردى الكامل حول الاستفتاء، فعلى حين يؤيد الحزب الديمقراطيّ الكردستانيّ برئاسة البرزاني والمسيطر

علـى حكومـة الإقلـيم فـي إربيـل وكـذلك علـى دهـوك الاسـتفتاء كخطـوة للاسـتقلال، يبـدو "الإتّحـاد الـوطنيّ الكردسـتانيّ" و"حركـة التغييـر" المعارضـة فـى السـليمانية ليسـت متحمسـة كثيـراً للاسـتفتاء. فقـد أكـد إسـماعيل صـابر عضـو المجلـس العـام لحركـة التغييـر، أن الأرضـية فـي إقلـيم كردسـتان غيـر ممهـدة لإجـراء الاسـتفتاء الشـعبي لتقريـر المصـير فـي المرحلـة الراهنـة بسـبب ملـف المنـاطق المتنـازع عليهـا، وكـذلك المشـاكل العالقـة داخـل الإقلـيم، و"أن حركـة التغييـر لـديها ملاحظـات علـى الاسـتفتاء، حتـى وأن اتفقـت مـع الـديمقراطي الكردسـتاني لاسـتئناف عمـل البرلمـان الكردسـتاني". وأكـد القيـادي البـارز فـي حركـة التغييـر، قـادر الحـاج علـي، إن هنـاك شـكوك جديـة فـى اسـتخدام القـادة الكُـرد ورقـة الاسـتفتاء كورقـة ضـغط علـى بغـداد وأنقـرة وطهـران لنيـل "مكاسـب شخصـية وحزبيـة"، علـى حـد تعبيـره. واستحضـر الخبـرة السـابقة فـى هـذا الاطـار قـائلاً: "لقـد أجـرى الساسـة الكـرد فـي عـام 2005 اسـتفتاء واسـتخدموا نتيجتـه فيمـا بعـد كورقـة ضـغط علـى الحـاكم المـدني الأمريكـي بـول بريمـر لاسـتلام مليـار ونصـف مليـار دولار مـن أمـوال الـنفط مقابـل الغـذاء." يـذكر أن حركـة التغييـر لـم تشـارك فـي أي مـن الاجتماعـات واللقـاءات الخاصـة بـإجراء اسـتفتاء فـي كردسـتان، ويؤكـد قيـاديوا الحركـة علـى أن الاسـتفتاء مسـألة وطنيـة ويجـب أن يـتم اقرارهـا مـن قبـل برلمـان كردسـتان بجميـع أحزابهـا، لا أن تأخـذ طابعـا حزبيـا أو شخصيا.

ثانيهـا، رفـض الحكومـة العراقيـة اسـتقلال الإقلـيم حيـث أكـد رئـيس الـوزراء العراقـى، حيـدر العبـادي، أن الاسـتفتاء فـي إقلـيم كردسـتان العـراق غيـر دسـتوري وغيـر شـرعي ولـن نتعامـل معـه. وتعتبـر الحكومـة العراقيـة الاسـتفتاء خطـوة لتفتيـت العـراق وتقسـيمه إلـى دويـلات، إلـى جانـب الاحتياطـات النفطيـة الهامـة بـه والتـى بلغـت وفـق أحـدى التقـديرات إلـى 40 – 45 مليـار برميـل، ووجـود منـاطق عـدة متنـازع عليهـا أهمهـا مدينـة كركـوك الغنيـة بـالنفط. ولكـن لـن تسـتطيع بغـداد اسـتخدام القـوة للحيلولـة دون اسـتقلال كردسـتان حـال اتخـاذ خطـوات جـادة نحـو ذلـك نتيجـة قـوة القـوات الكرديـة وامتلاكهـا للخبـرة القتاليـة العاليـة والكفـاءة والتسـليح والمـوارد الماليـة الكافيـة، ولأن القـوى الدوليـة الداعمـة للأكـراد وفـى مقدمتها واشنطن لن تسمح للعراق بهذا.

ثالثهـا، رفـض القـوى الإقليميـة الرئيسـية لاسـتقلال الأقلـيم. فتركيـا رغـم علاقاتهـا القويـة بـالإقليم فإنهـا لـن تقبـل بـأى حـال مـن الأحـوال اسـتقلاله وتصـف ذلـك بـ"الخطأ الفـادح"، لأن فـى ذلـك تشـجيعاً للأكـراد داخلهـا (14 – 20 مليـون نسـمة)، علـى الاسـتقلال وتحقيـق حلـم الدولـة الكرديـة الكبـرى. ورغـم أن تركيـا تـدخلت عسـكريا مـن قبـل فـى أقلـيم كردسـتان لملاحقـة حـزب العمـال الكردسـتانى الكـردى، فإنـه لا يمكـن تصـور قمعهـا لاسـتقلال الأقلـيم باسـتخدام القـوة. وغالبـا مـا ستسـتخدم الضـغوط الاقتصـادية القويـة للضـغط علـى الأقليم. فهنـاك أكثـر مـن 500 شـركة تركيـة تعمـل فـى الأقليم كمـا تبلـغ حجـم التجـارة بـين تركيـا وكردسـتان 10مليـار دولار. وتعـد تركيـا المنفـذ الرئيسـى لصـادرات كردسـتان مـن الـنفط، والتـى تبلـغ أكثـر مـن مليـون برميـل يومياً، عبـر الخـطّ التركـيّ القـائم حاليّاً بـين الإقليم وميناء جيهـان التركـي. ومـن ثـم فـإن أى ضـغوطات اقتصـادية مـن تركيـا سـتكون موجعـة بالنسـبة لكردسـتان. ويظـل بـديل اسـتخدام القـوة المسـلحة مطروحـاً إذا فشلت الضغوط الاقتصادية فى عرقلة تقدم كردستان نحو الاستقلال.

كـذلك تعـارض إيـران إجـراء الاسـتفتاء حـول اسـتقلال كردسـتان وتـرى أن الاسـتفتاء يمكـن أن يـؤدي فقـط إلـى مشـاكل جديـدة" فـى المنطقـة. لاعتبـارات عـدة أهمهـا الخـوف مـن صـدى ذلـك علـى الـداخل الإيرانـى حيـث يوجـد فـى إيـران أقليـة كرديـة (8 مليـون نسـمة). وشـهدت إيـران صـدامات متفرقـة بـين قواتهـا الأمنيـة والأكـراد بهـا. ومـن مصـلحة إيـران الحفـاظ علـى وحـدة العـراق الـذى تـرتبط معـه بعلاقـات اسـتراتيجية هامـة. ورغـم التهديـدات الإيرانيـة لإقلـيم كردسـتان العـراق وللمعارضـة الكرديـة الإيرانيـة التـى تتخـذ مـن كردسـتان مقراً لها، إلا إنها ليست فى وضع يسمح لها بالتدخل عسكريا فى الأقليم.

وسـوف يـدعم هـذا مـن التفـاهم والتنسـيق الاسـتراتيجى بـين طهـران وبغـداد، وقـد يـدفع إلـى تفاهمـات تركيـة مـع الطـرفين نظـراً للتهديـد المشـترك الـذى يمثلـه اسـتقلال كردسـتان على الأطراف الثلاثة.

رابعهـا، أن القـوى الدوليـة لا تبـدو علـى اسـتعداد للاعتـراف باسـتقلال كردسـتان علـى الـنمط الكوسـوفى. ويظـل الموقـف الأمريكـى هـو الأكثـر جـدلا حيـث تـدعم واشـنطن الأكـراد وتقـوم بتسـليحهم فـى سـوريا والعـراق فـى إطـار الحـرب علـى داعـش، وتعتـرف بـ «التطلعـات

المشـروعة» لمـواطني كردسـتان العـراق. ويعتبـر الاسـتفتاء خطـوة هامـة لمشـروعها فـى العـراق والمنطقـة، كمـا تطمـع واشـنطن فـى أن تكـون كردسـتان قاعـدة عسـكرية لهـا، وشـوكة للضـغط علـى تركيـا والحكومـة العراقيـة عنـد الحاجـة. الأمـر الـذى يثيـر حفيظـة حليفتهـا تركيـا وتبـدى الأخيـرة احتجاجـا علـى السياسـة الأمريكيـة. ومـن ثـم فـإن اعتـراف صـريح وسـريع مـن جانـب واشـنطن باسـتقلال كردسـتان سـيؤدى إلـى الإضـرار البـالغ بالتحـالف الأمريكـى التركـى الـذى يمـر بأزمـة منـذ المحاولـة الانقلابيـة فـى تركيـا. ولـذا فـإن الـدعم الأمريكـى للأكـراد يـأتى علـى اسـتحياء. وكـذلك الحـال بالنسـبة لألمانيـا حيـث عبـر وزيـر الخارجيـة الألمـاني عـن مخـاوف أوروبيـة مـن تـداعيات الاسـتفتاء، مشـيراً إلـى أن بـلاده «تحـذر مـن اتخـاذ خطـوات أحاديـة الجانـب فـي هـذه القضـية، وقـد تـؤدي إلـى تفـاقم الموقـف الصـعب والمضـطرب أصـلا فـي أربيـل وبغـداد .« وتعـد ألمانيـا شـريك رئيسـي لأكـراد العـراق وتـدعمهم بالأسـلحة والتـدريب حيـث يتمركـز نحـو 130 جنـديا ألمانيـا فـي أربيـل لتدريب قوات »البيشمركة» الكردية.

وفيمـا يتعلـق بروسـيا، فإنـه لا يمكـن لموسـكو التـى تمسـكت بحـق تقريـر المصـير للقـرم أن تعـارض الاسـتفتاء ونتائجـه، خاصـة مـع علاقاتهـا الجيـدة بـالأكراد، والتـى كانـت محـور جـدل وامتعـاض مـن جانـب تركيـا فـى فتـرات سـابقة. فـى هـذا السـياق يبـدو خيـار دفـع الحـوار والمفاوضـات بـين كردسـتان والحكومـة العراقيـة بمشـاركة القـوى الدوليـة والإقليميـة هـو البـديل الأمثـل لموسـكو، ويتضـمن ذلـك حكـم ذاتـى واسـع النطـاق لكردسـتان العـراق، وبلـورة تصـور بشـأن أكـراد سـوريا والمنـاطق التـى يسـيطرون عليهـا. ويقتضـى ذلـك تحـرك مبكر وتنسيق مع كل من تركيا وإيران والعراق التى تمثل الأطراف المباشرة المعنية.